

القدس: البوصلة و الدروس



09 مايو 2021 - 11:19

جمال زقوت

وكأنها شعرت بإهانة التاريخ عندما جرى الإيحاء بتكريس خضوعها وارتهاؤها لإرادة المحتل، فقررت أن تنتصر لتاريخها المدون على كل حجر من جدران أزقتها وبيوت أهلها الشاهدة على عنفوان المدينة وتعايش حضارات البشرية العvisية على الخضوع والتزييف في كنائسها ومآذنها ومخطوطات مكتباتها .

من الواضح تماماً، كما كانت معركة البوابات، و باب العامود، أن الأمر يتجاوز ما يجري في الشيخ جراح من محاولات عنصرية لاستكمال التطهير العرقي الذي يُظهر الصراع و يكتفه فعلياً بأنه يجري على كل حجر في قلب المدينة أو في أكتاف حواضرها العتيقة والحديثة أو تلك الشاهدة على النكبة واللجوء . فما يجري في الشيخ جراح يعيد تركيب ليجو عناصر القضية الفلسطينية الذي فككته سنوات وهم البحث عن تسوية، عندما دفعت للخلف مصير القدس ونكبة اللاجئين وحققهم في العودة، كما حق شعبنا في الحياة الحرة والسيدة على أرضه واستثمار ثرواته ومقدساته و موارده ؛ باعتقاد تبينته كارثيته فيما بعد إزاء إمكانية مقايضة الماضي بالحاضر كي نحظى بالمستقبل، ليتبين للمقدسين أولاً و قبل غيرهم أن حكام تل أبيب وعصابات الاستيطان مستمرة في تزييف التاريخ و الماضي لتسيطر على الحاضر وتصادر المستقبل.

فالقدس تعلمت الدرس كشقيقتها غزة التي حاولوا أن "يرمونها في البحر أو الرمل أو الدم ، ولكنها لن تكرر الأكاذيب ولن تقول للغزاة: نعم؛ وستستمر في الانفجار، لا هو موت ولا هو انتحار ولكنه أسلوب غزة في اعلان جدارتها بالحياة". فنهض أبناء المدينة المسكونين بمقدسهم الخاص المفعم بالكرامة رافضين أن تكون مدينتهم صفحة الفصل الأخير في دفتر الإذعان، وأعلنت مجدداً أسلوب جدارتها في الحياة دون انتظار صلاح الدين، فصلاحها ينهض من كل بيت وكل حجر، و من صوت الفجر الذي يرسم خيوط ملامحه أبناء المدينة العvisية على الهزيمة ! فما يجري في القدس يؤكد مجدداً أن رمزية المدينة التي تكثف عبق التاريخ تؤشر لنهوض حالة مستقبلية تتولد في أحشاء حواربها و بيوتها المهتدة بالهدم والمصادرة والتهود، وملاح هذه الحالة يمكن قراءتها بوضوح في المشاهد التالية :

أولاً: تصاعد محاولات التطهير العرقي داخل المدينة و على عتباتها الأمر الذي يظهر مجدداً حقيقة الصراع الجاري بين المشروع الاستيطاني الاستعماري للحركة الصهيونية وحكومة الاستيطان مع أهل القدس الاصلانيين الفلسطينيين الذين يدافعون ليس فقط عن بيوتهم، بل عن حق شعبنا بأكمله في البقاء ، و الذي ما يزال مستهدفاً بالتهجير منذ النكبة و حتى اليوم .

ثانياً: لأن القدس خارج لعبة الصراع على السلطة و لا تخضع إلا لمقدسات المكان، فهي تعرف كيف تنتصر لكرامة تاريخها العvisي على التزييف، و تنهض مستلهمة بسالة

المقاومة الشعبية المحررة من مقدس التنسيق وما يمنحه من حالة عازلة بين ارادة شعب يريد الخلاص من الاحتلال، و جيشه الذي لا وظيفة له سوى حماية ارباب المستوطنين ومخططات حكومتهم في طول البلاد وعرضها و في قلبها مدينة القدس و عروبتها .

ثالثاً: نفضت المدينة أصفاد الانقسام وتمكنت من استعادة وحدة كل الشعب في الميدان دون فواصل أو خطوط وهمية ليس فقط بين غزة و الضفة ، بل و ما عُرفت قسراً ب ال 48 أو 67، و سُمي بعضها لاحقاً أ، ب، ج ، بما يثبت مجدداً أن ركيزة استعادة الهوية الوطنية الجامعة و الجغرافيا الواحدة عنوانها الاساس استعادة بوصلة مقاومة المشروع الاستيطاني والوحدة في ميدان هذه المقاومة.

رابعاً : أن خواء بُنى الحركة الوطنية المهيمنة على المشهد ، و عجزها عن بلورة برنامج كفاحي شامل لمواجهة التحديات المصرية يؤكد ضرورة و ملحاحية ما سبقنا إليه أبناء القدس لجهة بلورة قيادة وطنية جامعة غير خاضعة للانقسام أو مصالح أطرافه الفئوية، تكون قادرة على استنهاض طاقات الشعب الفلسطيني من أجل انجاز حق العودة في مواجهة الاقتلاع و التهجير، و الحق في تقرير المصير لكل مكونات و تجمعات شعبنا في كافة أماكن تواجده .

خامساً و أخيراً: عندما يختزل مصير شعب وقضية بحجم قضية فلسطين بعيداً عن الائتلاف الجبهوي العريض التي مثلته منظمة التحرير و تعجز القوى المستقطبة حول مصالحها و مصالح قياداتها عن صون الحقوق، فليس أمام الشعب سوى استعادة زمام المبادرة و النهوض للدفاع عن مستقبله و عن حقوقه و في مقدمتها حقه في البقاء على أرض وطنه الذي لا وطن لنا سواه و على أرضه يتقرر مصير شعبنا و مستقبل أجياله للأبد .

هذه هي الدروس التي تقدمها لنا القدس و في مقدمتها أن شرعية القيادة لا توفرها اتفاقات بائدة، بل تتأتي من معمعان النضال في الميدان، و أن الديمقراطية الحقة هي تلك التي تزدهر في بيئير الانحياز للشعب و الدفاع عن حقوقه و الانتصار لتاريخه و مستقبله ولكرامة أبنائه . و يظل السؤال هل استوعبنا هذه الدروس، و متى و كيف سنستعيد القدرة بالمضي في هذا الطريق !؟